خطبة الكتاب

من اللَّافت للنّظر أن كلمة الإصلاح باتت ذات حضور قوي في الأقوال الإنسانية المعاصرة، بمعنى أنَّ الإصلاح قول كوني يرتبط من النَّاحية التاريخية بإرادة الإنسان في الخروج عن سائد الفكر أو سائد العمل، وصرف الجهد إلى صورة من صور الوجود التي تتصالح بموجبها التّعارضات: مثل تعارض العقل والإيمان أو تعارض النّظرية والممارسة أو تعارض الفردي والجماعي أو الذّات والآخر أو التَّاريخي والحاضر أو التراثي والحداثي؛ لذا، فإن كلمة الإصلاح ذات مشترك لفظي إنساني، والاختلاف فيما بينها آت من طبيعة المنظورات وطبيعة التحديات الثقافية التي تتطلَّب الرَّفع والتَّجاوز. وإنَّ من يطالع تاريخ كلمة الإصلاح يجد أنّها مُلازمة لتحدّ مخصوص، مثل الإصلاح الدِّيني الذي ارتبط بإصلاح نظام الاعتقاد والقراءة في الفكر الغربي وكذا إصلاح العقل الذي ارتبط بتخليص التَّفكير من القوالب المشتركة ومن الانفعالات المُشَوِّشَةُ، وصوغ الوعي وفقا لشروط المناهج العلمية أو خطابات المنهج، وحتَّى في العلوم المعاصرة، سادت كلمة «إصلاح المعرفة» بمعنى إعادة الرَّبط بين المعارف المشتَّتة وإيجاد اللُّحمة التي ضاعت، بفعل الفكر التَّجزيئي والعقل الأحادي والمعرفة الاختزالية.

هذا من حيث المدخل العام لكلمة الإصلاح؛ التي هي كلمة مندفعة دومًا في التاريخ، ولا يجري تكثير الكلام حولها إلَّا في السياقات الفَارقة؛ التي تُلازم إرادة المجتمعات، نحو السَّير لأجل إحقاق رئاسة الإنسان بتعبير ابن خلدون. أو نحو القيم الرَّافعة والحافزة للإنسان المتحضّر؛ الذي يتّسم بالصَّلاح في الحال وفي المآل. وإذ

تقرر هذا، فإنّنا نصرف البيان قليلا إلى روح الإصلاح في المجال التَّداولي الإسلامي، وما السِّمات التي يختص بها بالمقارنة مع صور الإصلاح السَّائدة في التاريخ الإنساني؟ لأنَّ الإصلاح الذي يُؤَثِّرُ في العالم فعلا، هو الذي يكون إنسانيا عالميا، وليس خاصًا أو قُطريًا، لأنَّ الإنسانية تجدُ فيه مطالبها الوجودية والعلمية والنَّفسية والأخلاقية والاجتماعية والسِّياسية. وعليه، فإنَّ أي كلام عن الإصلاح لا يراعي البعد الإنساني وينحصر في الإصلاح الدَّاخلي أي القضايا الحاصلة في العالم الإسلامي فقط؛ هو إصلاح مقطوع الصِّلة عن صورته الأصلية، ومحدود في امتداده نحو العالم، من هنا؛ لزم صرف القول دائما في قضايا الإصلاح إلى الاشتباك النَّقدي والتَّفاعل التبادلي التَّكاملي مع إشكالات الإنسان المعاصرة، كي يتحقَّق بصفة الشَّاهدية على الإنسانية، والمسؤولية على علاج أزماتها والأخذ بيدها نحو الحقّ وجوديًا والخير سلوكيًا.

يتبينّ إذن مدى المدلول الاتساعي لكلمة الإصلاح، وتَرابُطه مع أسئلة الإنسان المعاصر؛ في قضايا المعرفة والأخلاق؛ التي باتت أسئلة تبحث عن إجابات جذرية وليس إجابات جزئية، ما تفتأ أن تنبثق منها مشكلات أخرى من غير أن ترسوا على يقين في مقاصدها أو في منطلقاتها. ونحن في هذا الكتاب، صرفنا القول إلى نماذج اجتهادية في الفكر الإصلاحي المعاصر، بصفتها شواهدَ مُثلى على هذا النَّوع من الإصلاح، أي الذي يشتبك نقديًّا مع الفكر الغربي مستوعبًا لمقولاته ومتلمّحًا لحدوده وإشكالاته، لكي يأخذ باليد بعدها إلى الأنموذج الإنساني المتوازن في رؤيته إلى مشكلات المعرفة ومشكلات الأخلاق. وهنا كان حقيق بنا، أن نستخرج من جهود الإصلاح في الفكر المعاصر هذه النماذج التي تحقّقت بسِمة نفسية ذات أهمية بالغة، إنّها استعادة الثقة بالمجال التداولي الإسلامي العربي في أصوله الكبرى: منظومة الاعتقاد ومنظومة المعرفة ومنظومة القيم؛ وإعمال أصول هذا المجال في التَّعاطي مع إشكالات المعرفة والأخلاق، وتقريب الجوانب الإيجابية للفكر الغربي بوصفها تعبر عن جهد الإنسان في كشفه عن القوانين الإلهية المبثوثة في الوجود الطبيعي والإنساني. إنها صنف نادر من أصناف المصلحين في الثقافة الإسلامية، وسرّ ندرته تكمن في تكوينه الفكري القويم،

وتحصيل القدرة على إنجاز الطفرة الخلّاقة أو التركّيبة الإبداعية بين أصول المجال التّداولي الإسلامي العربي، وبين إنجازات الفكر الغربي بصرفها عن نهاياتها الوضعية وإعادة إسكانها ضمن الأنموذج الثقافي الجديد.

وقد جعلنا عنوان الكتاب: **حقول الإصلاح في الفكر الإسلامي: نماذج اجتهادية وإشكالات منهجية**، مُحلّلين فيه جهود هذه الفئة المعرفية النَّادرة؛ **أوَّلا**: قصد عرض مفاهيمها ومناهجها في الإصلاح المعرفي والخلقي، **وثانيًا:** قصد لفت النّظر إلى أهميتها تربويًا والاستفادة من العوامل والشُّروط الاجتماعية والتَّكوينية التي أخرجت مثل **هؤلاء؛ لأجل التَّفكير في مدارس تكوينية تمكّن من إعداد «صنف المفكّرين المبدعين» وفق برامج ومقرّرات تأخذ من فكر هؤلاء المنهجية التَّكوينية وآليات التمكُّن من الفكر الغربي فهمًا ونقدًا وتقريبًا.**

أما البنية المنهجية العامة للكتاب فقد قسّمناها إلى خطبة للكتاب، أي مقدمة أو خطاطة تُعرّف بالموضوع وتُفْصِحُ عن أهميته، وخطبة الكتاب هي التَّسمية التي كانت عند المؤلفين القدماء.

ثم فصل تمهيدي هو مقدمة نظرية تشرح طبيعة الجهود الإصلاحية لهذا الجيل من المفكرين، والمعالم التي يمتازون بها، فضلًا عن سياقات تشكل هذا الخط الفكري، وما خصوصيتهم المعرفية والمنهجية. وكان عنوان **الباب الأول هو: حقل القيمة والمعرفة في الفكر الإصلاحي: الأدوات والغايات**

وأفصح الفصل الأول عن موضوع «**الترابط بين الحقيقة والقيمة عند إسماعيل راجي الفاروقي**»، من خلال دخوله النقدي على الفلسفات الشكية المعاصرة، كاشفًا عن أسباب هيمنتها في الفكر المعاصر، ومبيّنا حدودها، لينتقل بعد هذا إلى اقتراح صورة جديدة من صور التَّكامل بين الحقيقة والقيمة والحياة، منطلقا من الرؤية الكونية التوحيدية وآخذًا بها إلى صُلب أزمة المعرفة المعاصرة التي أفقدتها الشكية أقدس قيمة وهي الحقيقة. بينما يعيد الفاروقي تأسيس الحقيقة والمعرفة والقيمة على الرؤية الكونية التوحيدية لعلاج الإنسان من حالة التّيه الوجودي والعبثية الأخلاقية السَّائدة.

أما الفصل الثاني فقد تناول «**تحرير المعرفة من إرادة العلمنة في منظور عبد الوهاب المسيري**»، الذي راهن فيه على تحرير المعرفة من الرؤية العلمانية الضّيّقة، حيث أفرد كلامه البادئ عن محنة المعرفة بين القداسة والعلمنة، والانتصار المُتَحَقّق لعلمنة المعرفة في التاريخ، فما كان من المسيري إلا أن استجمع قواه المعرفية وتجربته الإيمانية من أجل إعادة تحرير المعرفة من العلمنة ووصلها بالقداسة والإيمان، هذا ما أسميناه بالحكمة التي تتقابل مع معنى كلمة الفلسفة، فالحكمة هي المعرفة المؤسسة على تعاليم الوحي الإلهي، في حين أن الفلسفة السائدة هي المعرفة المُعانِدة لتعاليم الوحي الإلهي، والصَّارفة الأقوال والأفعال إلى الإنسان من غير توجُّه إلى الإله، وإلى العقل من غير وحي، وإلى الدنيا من غير تطلّع إلى الآخرة.

أما الباب الثاني، فقد حمل عنوان «**الحقول المنهجية لإصلاح الذّات أخلاقيًا**»، قسمناه إلى أربعة فصول: الأول حمل عنوان «**علم تجديد الصّلة بالله: درب جديد خارج النّسق الكلامي ومدارس الزُّهد والتصوف**» ناقشنا فيه جهود مالك بن نبي في رسم الإصلاح الرُّوحي الذي يتجاوز الإصلاح الظَّاهري على حد تعبيره، وينهض في المقابل، إلى إرساء لبنات تحتاج إلى توسيع وتأصيل لهذا العلم الجديد «**علم تجديد الصلة باللّه**». فهو العلم الذي يبتغي تحقيق «انتفاضة أو هزّة القلب»، الأمر الذي لم تستطع جهود الإصلاح السَّائدة تحقيقه، بأن سارت مع إصلاح الفكر وإصلاح السياسية، ناسية الأصول الفعلية للإصلاح الأخلاقي الجذري. وهذا الإصلاح يجتاز مجال التَّداول الإسلامي، لكي يكون قناة إصلاح حال الإنسان الغربي كذلك، الذي فقد هو الآخر سمة «مسوغات الوجود» وأخلد إلى الثقافة الاستهلاكية حتى بات مصابًا بمرض المتلازمة الاستهلاكية.

بينما سار الفصل الثاني نحو «**التّفكير مع مالك بن نبي في ظل سلّم الحاجات الحالية**»، حاولنا من خلاله التفكير مع مالك بن نبي، من حقول إصلاحية ثلاثة: حقل القراءة الذكية والمطبقة، وحقل إصلاح جهاز التّفكير، وحقل تذكُّر المرحلة المنسية من مراحل الحضارة.

وأما الفصل الثالث فقد حمل عنوان «**التَّجديد الروحي وإصلاح الذّات عند محمد إقبال**» وهو فصل تركزت أفكاره حول كيفية تحقيق إثبات الذّات أو تجديدها، الذي ظهر لمحمد إقبال أنه في الفعل أو العمل، فالعمل الأخلاقي هو الذي يعيد وصل العلاقة بين الإرادة والزمن في التَّاريخ من جديد، ويعيد تجديد العلوم النفسية العاجزة عن علاج أدواء الإنسان الروحية، بأن ينسُج مرة أخرى شبكة العلاقات الاجتماعية من جديد؛ بواسطة العمل الروحي الإثباتي الحيوي وليس عن طريق العقل النّظري المجرّد؛ لأن القرآن في روحه كتاب عمل وليس كتاب نظر فيما يقول ذلك محمد إقبال.

بينما اختص الفصل الرابع بفكرة «**ترتيب مدارات الإصلاح: من تجديد العقل إلى تنمية الإرادة فإلى الرؤية الكونية الحضارية القرآنية**»، طبقنا فيه منهجية التَّحليل بالنماذج المعرفية، على تحولات خطاب الإصلاح في فكر المرحوم عبد الحميد أبو سليمان، حيث بدا لنا أن ثمة انتقالات منهجية لديه: انتقال من أزمة العقل إلى تنمية الإرادة، ومن تنمية الإرادة إلى الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، بوصفها المنطق الأساس للإصلاح الإنساني، وانتهينا، إلى أنّ هذه الانتقالات لا تعني اضطرابًا في الرؤية؛ إنّما تعني الوعي بالتحديات الجديدة، التي تستلزم تطوير نموذج يقتدر على حل المشكلات، وبالتَّالي، فالخطابات الإصلاحية، حقيق بها الاستفادة من هذه المنهجية وتوظيفها. وأخيرًا ضمائم ثلاثة، في صيغة حوارات معرفية، تعالج هي أيضًا حقولًا إصلاحية راهنة.

ويجدر التنويه في الأخير إلى أن فصولًا من هذا الكتاب كانت قد ظهرت في مجلات علمية محكمة، أو كتبًا جماعية أردنا إعادة جمعها في كتاب له هم مشترك؛ هو هم الإصلاح في موضوع المعرفة وموضوع الأخلاق، ويستجلي الخصوصيات المنهجية لهذه الفئة من المصلحين.

وقبل أن أختمَ هذه المقدمة، لا بُدَّ من القول بأن الغرض من الكتاب، ليس هو الجمع التراكمي لهذه المجموعة من المشاريع الإصلاحية، إنما هو مكاشفة البنية المنهجية لتفكيرهم، واستئناف القول الإصلاحي الذي امتازوا به، وتدريب جيل الشباب المتطلع إلى إعادة المجتمع الإسلامي إلى حلبة التّاريخ؛ على احتراف فكر

الإصلاح الرّصين والمتين، ويمكن لجهود بحثية أخرى أن تسلط الضوء على مشاريع أو شخصيات أخرى تشترك مع هذا الخط، أي أن النَّماذج الواردة، لا تستغرق جلَّ الجهود، إنما هي جزء منها، وقطعة من جهود الإصلاح والتَّجديد في العالم الإسلامي.

فالشكر لله جل وعزّ على توفيقه وتيسيره لنا، في جمع هذه النُّصوص وتنسيقها، فله الحمد والشكر كما ينبغي لجلال وجهه ولعظيم سلطانه. كما لا أنسى إسداء الشكر إلى الدكتور ياسر المطرفي، المدير العام لمركز نماء للبحوث والدراسات؛ الذي أعجبته فكرة الكتاب، وقدَّم لي ملاحظات منهجية سديدة، وأشار عليّ بتعديلات وإضافات، مكَّنتني من إضافة فصل تمهيدي، يبحث في الخيط الرَّابط بين موضوعات الكتاب، كانت لها الدور الجليل في استكمال الصورة المنهجية للكتاب، فله جزيل الشكر على هذه الملاحظات القيّمة.

د. عبد الرزاق بلعقروز

13 رمضان 1445 الموافق 23 مارس 2024

الهضاب العليا سطيف/ الجزائر